القسم الثالث

العمل الجماعي والتضحية بالنفس

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

مقدمـــة

obeikandl.com

obeikandl.com

43

تستمد الحركة الجماهيرية حيويتها من نزعة أتباعها إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. وعندما نعزو نجاح حركة مـا إلى عقيدتها ومذاهبهـا ودعايتها وقيادتهـا وقسوتها، وما إلى ذلك، فنحن في حقيقة الأمر، نشير إلى أدوات وآليات تقود إلى العمـل الجماعي والتضحية بالنفس. ولعلّه من المستحيل أن نتفهـم طبيعة الحركات الجماهيريـة ما لم ندرك أن همها الأساسي هو خلق قنـوات للعمل الجماعي وللتضحية بالنفس، وتطوير هذه القنوات وتحسينها وإبقاؤها. إن التعرّف على هذه القنـوات يقودنا إلى المنطق الداخلي لهـذه الحركات والأفكار التـي تسودها والممارسات التي تقوم بهـا. وأي جماعة منظمة تحـاول، لسبب أو لآخـر، أن تخلق وحدة مترابطـة واستعدادًا دائمًـا للتضحيـة بالنفـس تكتسب، عـادة، الكثير مـن سمات الحـركات الجماهيريـة، سـواء كانت سمـات طيبـة أو سيئة. ومـن ناحية أخرى، فإن الحركة الجماهيريـة تفقد كثيرًا من الخصائص التـي تميّزها عن بقية التنظيمات عندما تتراخى وحدتهـا الجماعية وتعترف بالمصلحة الذاتية أساسًا مشروعًا لنشاطهـا. ونلاحـظ أن الدول الديمقراطيـة في أوقات السلم والرخـاء تتكوّن من تنظيمـات مؤسسية لمواطنـين أحرار، أما

حـين يصبح بقاء الدولة مهـددًا، وعندما تحاول تعزيز وحدتها وغرس روح التضحيـة بـين مواطنيهـا فإنها تكتسـب، إلى حد ما، خصائصـ الحركة الجماهيرية. والأمـر نفسه يسري على التنظيمات الدينية والثورية: تتحول هذه التنظيمات إلى حركات جماهيريـة لا بسبب المذهب الـذي تبشر بـه أو البرنامج الذي تعلنه، بل بسبب وحدتها واستعداد أتباعها للتضحية بالنفس.

ومـا يهمنـا هنـا هـو أن المحبطـين إحباطًا شديـدًا تنمو لديهم، على نحو عفوي، الرغبة في العمل الجماعي، وفي الوقت نفسه، في التضحية بالنفس، وهكذا فإنه من الممكن تفهم هذه النزعـات والأساليب التي تتبع لغسل الأدمغـة إذا راقبنا كيف تولد داخل العقل المحبط.

مـا الذي يقلـق المحبطين؟ إنـه الشعـور أن أنفسهم ميتة وميؤوس منها. أن رغبة المحبطين الأساسية هي أن يهربوا من أنفسهـم، وهذه الرغبة تتجسد في النزعة إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. إن الاشمئزاز من النفس غير المرغوب فيهـا، وهاجس نسيانها وطمسهـا وإخفاءها هـو الذي يوجد الرغبـة في التضحية بالنفس، وفي العمل الجماعي حيث تذوب النفس في المجموع. بالإضافة إلى هذا، فإن الاغتراب عن النفس تواكبه، عـادة، مشاعر وعواطف كثيرة تبدو غير مترابطة، إلا

أن التأمل فيها يظهر أنها عوامل أساسية في التوجه إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. وبعبارة أخرى، لا ينتهي دور الإحباط بإيجاد الرغبة في العمل الجماعي والتضحية بالنفس، بـل إنه، فوق ذلك، يخلق الآلة الضرورية لتحقيق هذه الرغبة. إن احتقـار الحاضر، والقـدرة على تخيّل أشيـاء غير واقعية، والنزعة إلى الكراهية، والاستعداد للتقليد، وسرعة التصديق، والاستعداد لتجربة المستحيل، كل هذه المشاعر، وكثير غيرها، تزحم عقل الإنسان المحبط، وتدفعه إلى الأعمال اليائسة.

مـن المتوقـع أن القارئ لـن يقتنع بكثير ممـا سيجيء في هـذا القسم مـن الكتاب، وقد يشعر أن بعض الأشياء بولغ في تضخيمهـا، بينمـا أهملت أشياء أخرى. علـى أننا لا ندّعي أن هذا كتـاب أكاديمي موثّق. هذا الكتاب، علـى العكس، يحتوي على أفكار، مجـرد أفكار، ولا يرفض «أنصـاف الحقائق» إذا كانـت تحتـوي على منهج جديـد، وتساعـد على توليـد أسئلة جديـدة. يقول بيجهـوت(*): إذا أردت إيضاح مبـدأ ما فعليك بكثير من المبالغة وكثير من الحذف».

(*) كان والـتر بيجهـوت (1826 – 1887م) صحفيًا ومحلـلًا سياسيًا وتولى رئاسة «تحرير الأيكوترست» وكان متعدد المواهب والإبداعات (المترجم).

إن القـدرة على العمـل الجماعي تمشي، عـادة، يدًا بيد مـع القدرة على التضحية بالنفس، وعندما نسمع عن جماعة لا تخـاف الموت فعلينـا أن نستنتج أن هـذه الجماعة مترابطة ترابطًا قويًـا وموحدة توحيدًا تامًا[1]. ومـن الناحية الأخرى، فعندمـا نجد فردًا ينتمى إلى جماعـة مترابطة ترابطًا كاملًا فسوف نجده، على الأغلب، لا يخاف الموت.

يتطلب كل من العمل الجماعي والتضحية بالنفس الإنقاص مـن قيمـة النفس. ولكـي يصبـح الفـرد عضـوًا في جماعـة مترابطة، فـإن عليـه أن يتخلى عن الكثير: عـن خصوصيته، وعن آرائـه الشخصية، وفي كثير من الحـالات عن ممتلكاته. ومـن هنا فإن تدريب الفرد علـى العمل الجماعي يجعله قادرًا علـى إنكار الذات، ومن ناحية أخـرى، فإن الفرد الذي يحتقر نفسه يزيل الحاجز الصلـب الذي يحول بينه وبين الذوبان في الآخريـن. كل عوامل الارتباط بالمجموعة، والحالة هذه، تحفّز الشخص على التضحية بالنفس، والعكس صحيح. وسنحاول في الصفحـات القادمة الفصل بين النزعتين، العمل الجماعي

(1) تجـد «في قبائـل الهنـود الحمر في أمريـكا الشمالية أن أشـد الأشخاص شعورًا بالوحدة هم أقدرهم على خوض المعارك» انظر:
w. g. sumner, war And other Essays, (New Haven: Yale university Press, 1911), p. 1.

والتضحية بالنفس، لتبسيط القضية مدركين، في الوقت نفسه، أن النزعتين، في حقيقة الأمر، مرتبطتان ولا ينفصلان.

إن آلية غرس الاستعداد للقتال والموت تتكون من فصل الفرد عن نفسه، عن شخصه المكوّن من لحم ودم، وعنه من أن يكون ما تريده نفسه الحقيقية أن يكون. ويتحقق هذا الهدف بتذويب الفرد في المجموعة الموحّدة المترابطة؛ بإعطائه نفسًا جديدة متخيلة؛ بأن تغرس فيه اتجاها إلى احتقار الحاضر وشغفًا بالأشياء القادمة التى سوف تجيء في المستقبل؛ بأن نضع حجابًا بينه وبين الحقائق؛ بأن نشحنه بالعواطف المتفجرة على نحو يجعل من المستحيل عليه أن يعيش مع نفسه.

obeikandl.com